الفصل الأول

مَرْكَبٌ بَطيءٌ في صِينٍ سَريعة

ليس تَعَرُّج ضفاف نهر هوانجبو Huangpu، الذي يعبر شـنغهاي، تَعَرُّجاً عاديـاً. إنه تَعَرُّج يأخُذُ الألباب. فكانت آثار تيارات التغيير التي عَصَفَتْ بالصين الحديثة مدة قرن ونصف، أكثر وضوحاً على ضفاف شنغهاي من أي مكان آخر. فقد اندفعت القوى الغربية في هجوم ضارٍ في منتصف القرن التاسـع عشر من هنا، ثم أدلى اليابانيون بِدَلْوِهم سـنة 1895م. وأسـس الأجانب دولةً في مدينة يمكن وصفها بأي شـيء إلا أن تكون مسـتقلة، ليديروا منها تجارتهم الصينية. واختلطت الأذواق الغربية مع الصينية على مدى واسـع حتى نرى رصيف الميناء بَند Bund، الذي كان يومئذ المركز التجاري في شـنغهاي، على الضفة الغربية للنهر، أشبه بجادة رئيسة تزينها الأضواء في عاصمة أُوروبية كبيرة.

كانت شـنغهاي في أوائل القرن العشـرين تعد واحداً من أهم خمسة مراكز تجارية فـي العالم- قبل أن تفك الصين ارتباطهـا بالعالم في ثلاثينيات القرن العشـرين - إلى جانب لندن، ونيويورك، وباريس، وطوكيو. وكان ميناؤها الميناء الثاني ازدحاماً في العالم، وضَمَّت مَصارِفُها، التي قامت ضمن الخَليط المفروض من قصـور المال الأُوروبية الضخمـة والأبراج الضئيلة علـى الرصيف، فكانت تعامـلات تجارية مغرية تجري مـع الغربيين واليابانيين الذيـن يبيعون الآلات، والنسـيج القطني، والأدوية، والأفيون. وكان نِتاجُ مصانع الصين يَفيض بالثياب، والورق، وسـواهما من سِلَعٍ سهلةِ التصنيع بأسعار لا يستطيع الغرباء مضاهاتها في أوطانهم. فكانت كميات ضخمة من السِّلَع تنتقل في الاتجاهين معاً.

وقد أنشـــأ الغرباءُ في شنغهاي ميناءً عالمياً، غير أنها سرعان ما تَحَوَّلَت إلى مِغْناطيس يجذب الصينيين الذين يرغبون في العمل في المصانع، أو في الحراسة في فترات الاضطرابات الاجتماعية. وقد أسهمت الهجرةُ الواسعةُ إلى شنغهاي، والخـــوفُ من أن يَبْتَلِـــعَ الغُرباءُ مدينَتَهم، في التَوَجُّه إلى نظام قَسَّـــم المدينة إلى مناطقَ مُنْفَصِلَة؛ فأقسام من المدينة لها بوابات خاصة بالمُسْتَعْمِرين، عُرِفَت بأنها امتيازات، والباقي للصينيين. وتتجَلّى المفارقة في أن التقسيم قد أوجد أيضاً أول مدينة حديثة في الصين عندما فرض الأُوروبيون حكماً يتمتع باســـتقلال محلي رســـمي على شـــنغهاي. ولم يكن للمدن الصينية فيما مَضَى برغم أن كثيراً منها كان كبيراً، وكانت حكومات تتمتع باســـتقلال محلي. ويلفت الانتباه هنا أن كلمة حديث modern بالإنجليزية، قد نُقِلَت حروفُها إلى اللغة الصينية أول مرة في شنغهاي، فصارَت المدينةُ مُرادِفَةً للحداثة.

لقد شَـــيَّدَت هذه المدينة الصينية التي وُلِـــدَت من جديد بإدارة غربية أعلى مبانـــي البلاد، وآوَت أبرز مصارِفها، وكان فيها حافلات ومياه جارية، وصالونات تجميل، ومقارّ تجارية، وأزياء فرنســـية. ولم يكن دعاة الحداثة في المدينة دائماً من الأُوروبيين أو الأمريكيين من النمط الاستعماري التقليدي. فقد كانت شنغهاي الحديثة، منـــذ أن انطلقت، وطناً لمجموعة صغيرة اســـتثنائية مـــن اليهود. أتى كثيرٌ منهم من العراق، وإســـبانيا، والبـرتغال، والهند. وأسهمت عائلات هاردون Hardoun وقدوري Kadoorie، وساسون Sassoon، في بناء عالم شنغهاي الجديد الذي لم يكن غربياً ولا شرقياً.

غير أن المدينة لم تكن حديثة حتى تكفي لغســـل الأحقاد القديمة. إذ تُرْوى قَصَصٌ عن الشـــاخصة البغيضة على باب حديقة هَنجبو البريطانية British Hangpu Park التي تمنع دخول «الكلاب والصينيين». كانت شـــنغهاي يومئذ، ولم تزل، تجمع تناقضات العالم. وكان محور آســـية الرأسمالي هذا أيضاً المكان الذي شـــهد سنة 1921م أول اجتماع للحزب الشـــيوعي الصيني. وكانت مدينة

شنغهاي موطناً لليائسين. ففي الحرب العالمية الثانية أصبحت المدينة، التي بقيت منعزلة عن الأمم، ملاذاً لثلاثين ألفاً من يهود أوروبا الهاربين من النازية.

واستولى الشيوعيون على البلاد سنة 1949م، وتحولت قوة شنغهاي الإبداعية عن الاستثمار طيلة أربعين سنة تَلَت. وجَمُدَت الحياة التجارية، وذَوَى بَريق فن العمارة الأُوروبية في شنغهاي وأبنيتها القرميدية التي تعود إلى ما قبل 1940 التي كانت تعكس المزيج الدولي للمدينة.

وعادت اليوم شنغهاي المدينة العالمية الأكثر كبرياء وحداثة في الصين. غير أن تاريخ الهيمنة الأجنبية على المدينة ما زال يحمل فَيْضاً من جراح وطنية صينية. ذلك الأذى الجماعي يساعد في إذكاء توجه الصينيين اليوم، إضافة إلى تناقض الصين في استعدادها لما يمكن أن تعطيه للغرباء ولما تأخذه منهم. كانت شنغهاي قديماً فاسِدَة غير أنها بَرّاقة، وهمَجِيَّة لكنها مُنَمّقة، وبَغيضَةً وإنما مُرْبِحَة. وقد اعتادت حكومة الصين أن تخفي هذا الجانب من ماضي شنغهاي، وتستعمل الحكومة ماضي شنغهاي الاستعماري الذي وُصِم مرة بعبارة «عاهرة آسيا» لتذكر جمهورها بأن ثَمَّة عالماً معادياً جاهزاً دائماً ومستعداً لإهانة حضارتهم الفخورة.

فإذا كان ثمَّة من لديه استعداد للقتال فإنهم أهلُ شنغهاي. إنه استعداد يجمعونه بحماسة شديدة ويحوِّلونَه إلى ناطحات سَحاب. فبرغم شُعورهم التاريخي بالمهانة، ربما كان أهلُ شنغهاي أكثر ثقة – أو أكثر غروراً، كما يقول الصينيون – بين أبناء بلدهم. ويعتقد أبناء شنغهاي أنهم أفضل رجال أعمال الصين، وأكثرهم قدرة على الإدارة، وأكثرهم عَوْلَمَة، وأشدّهم إقداماً على المغامرة. وليس صدْفَة أن يكون عددٌ غير متكافئٍ من القيادة العليا للحزب الشيوعي قد قَدِم من تلك المدينة، أو أن الصين خصت شنغهاي دون سواها لتكون المدينة التي تحل محل هونج كونج مركزاً مالياً كبيراً في البر الرئيس، ثم احتلت موقعها مركزاً من أهم مراكز المال والأعمال في العالم. وهكذا يعد

وسط هوانجبو Huangpu مكاناً ملائماً ليشهد تناغم المدينة وائتلاف الماضي والحاضر. فالمواصلات تزدحم في الطرق المائية كما هي الحال في طرق المدينة المكتظة بوسائط النقل. ورحلة المركب بعد الظهر تقل المسافرين إلى ذُرْوَة ساعة الازدحام المائية، حيث مئات المراكب، بعضها على شكل سمبان مُضَخَّم، وبعضها مثل جبال عائمة من الرمل أو الفحم، تَصْطَفُّ أربعةً أو خمسةً على عرض النهر تحت ظلال سفن شحن عابرة محيطات برتقالية أو مراكب رمادية أنيقة تَبْدو مصانع عائمة غير أنها تحمل وقوداً ومواد كيميائية.

ومركب النزهة هو قَطْمَران catamaran، غير أن شكله والركوب فيه يشبه ركوب مركب بطيءٍ – مجهَّزٍ بمطعم من ثلاثة أدوار مفتوح من أعلاه. ولولا رأسيّ التنين النحاسيتين بعينيهما الجاحظتين يبرزان من مقدمته لكان القارب أشبه بقاعة احتفالات صينية رخيصة الأجر. والمركب المليء بمقاعد كالعروش محفورة على طراز الباروك مُوَشَّاة بالذَّهَب المكثف. وطاولات الطعام مغطاة بمفارش منشاة غير أنها مُلَطَّخَة بالبُقَع، وطاقم من العاملين بليد، كل ذلك يعطي المركب شكل سفير عائم لقطاع سياحي حكومي، وإمبراطورية في طول البلاد وعرضها تضم المطاعم والفنادق الرديئة. أما خدمة القارب، وهو أحد المشاريع السياحية التجارية الأولى في الصين، فمازالت تُرَوِّج للنسخة الشيوعية من السحر حتى عندما يذرع النهر الرمادي جيئة وذهاباً ثلاث ساعات ونصف، شاقاً طريقه ببطء نحو تقاطع نهر يانجتزِ Yangtze وبحر الصين الشرقي.

وبرغم المواصلات النهرية، فقد بَقِيَت شنغهاي مُحْتَواة بِذاتها، يطوِّقها ريف زراعي. وعندما بدأت الجولات بالمركب بُعَيْدَ تحَرُّر الصين الاقتصادي في مطلع ثمانينيات القرن العشرين، كان المرء يستطيع أن يَمُدَّ بَصَرَه خلال الماء ليرى حقول الأرز والخضار، وساحات يربى فيها الدجاج، والخنازير، والإوز، والشَجَر الظَّليل. فأصبح رصيف الميناء زَرِيّاً إثر عقودٍ من الاحْتِقار الشيوعي، فلا يَصْلُح لِعَمَل تجاري منذ سنين بعيدة. واستولت الوكالات الإقليمية والإدارية، بما تحمله

مــن حِقْدٍ على الفنادق والمصارف الأجنبية، علــى أكبر الأبنية. فعندما ازدَهَرَت شــنغهاي في تسعينيات القرن العشــرين، بقي رصيف الميناء راقداً، مثل مشهد مدينــة في فيلم غير عادي من أفلام هوليــود في الثلاثينيات لم تَعُد تَجِد قِصَّة فيلم أُخرى.

وعندما اســتعادت شــنغهاي مَوْقِعها التجاري، حاولت تَرْميــمَ بعضَ أَلَقِها وحَيَويَّتِهــا الدولية بتأجير حَيِّــز من أبنية الرصيف الكبيــرة إلى مطاعِم دجاج كنتاكي Kentucky Fried Chicken التي كانت تحمل نكهة الغرب «الفاخرة» عند الســكان المحليــين في تلك الأيام. أما اليوم، فقــد انْجَلى دجاجُ كنتاكي عن الرصيف، غير أنَّه انتشر في أماكن أخرى من المدينة، حيث يعد رفاهية مرغوبة. واكتســب رصيفُ الميناء، في هذه الأثناء، البريقَ الذي يَحمِله إلى عواصم العالم متعهدو أسلوب الحياة الدولية. وإنَّكَ تَسْتَطيع أن تجد الآن على الرصيف الشوكولا الإيطالية، وماء إيفيان الفرنســي، وفنادق ومخــازن أنيقة، ومطاعم عالمية جاءَ طُهاتُهــا الكبار من باريس ونيويورك. ومجمع ترفيهي على الشــاطئ يحتل برجاً لمكاتب قديمة كَلَّفَ تجديدُها 50 مليون دولار قام بها مايكل جرِيْفس Michael Graves، وهو من أشــهر مهندســي العمارة في العالم. ويضم صالةَ فنون ربما كانت من أكثر مواقِع الاسْــتِعْراض الذي يَرْتادُه الناسُ في العالم، وله نوافذ تطل على حركة المواصلات المائية وضفاف النَّهر كستائر راقصة من أضواء مُلَوَّنَة.

إنها مدينة ذات ثروة حقيقية تلك التي تســتطيع أن تُجري كُلَّ هذا التغيير. فمتوســط الدخل في المدينة يزيد عن عشــرة أضعاف الدخل خارجها، وهناك طبقة وســطى كبيرة يبلغ دخــل الفرد فيها 10.000 دولار أو أكثر في الســنة. وقد سَــمَّى الناسُ المالَ الذي يَكسِبونه غير الدخل الذي يصرِّحونَ عَنْه «مصادر إضافية»، ويبدو أن كثيراً من الناس يملكون هذه المصادر. وتزدحم على الرصيف وعلى الطرقات المرتفعة سيارات خاصة تكلف أُلُوفاً أكثر مما تكلفه في الولايات المتحدة وأوروبا. حيث تفرض بلدية شــنغهاي على الســائقين دفع 5.000 دولار

ثمن إجازة لشـــراء ســـيارة. وبرغم ذلك، فإن الأنواع الراقية تُطلَب مُسْـــبَقاً. وما كان الإقبال على الشـــقق الخاصة، وكثير منها يكلف 10.000 دولار وربما أكثر، ليحـــدث في مدينة ليس لها موارد إضافية كثيرة. إنه ازدهار يُمَوِّل ازدهاراً. لقد ارتفعت أملاك شنغهاي ارتفاعاً سريعاً أنشأ طبقة مالية جديدة في المدينة. فقد ارتفعت قيمة أملاك السكان المحليين الذين يملكون ما يكفي من المال والجسارة لدخول سوق الإســـكان في أواسط تسعينيات القرن العشرين وأواخره 20 بالمئة على الأقل ســـنة بعد سنة. وتضاعفت قيمة كثير من العقارات في أقل من ثلاث ســـنوات. وأقبل الناس على شراء المزيد. إنهم يبيعون قليلاً ليشتروا المزيد. وقد ثارَت فَضيحَةٌ محليَّة على أخبارٍ بَيَّنَت أن ثُلُثَ شـــقق شـــنغهاي الجديدة الفخمة قد اشـــتُرِيَت ثم بِيْعَت قبل أن تســـكن. وقد أدى ذلك إلى طفرة ثراء لشريحة من الســـكان الشباب في شـــنغهاي لا يعرفون من أين أتت ثرواتهم، كأنهم إذا رفعوا أيديهم في الهواء يأتيهُم المالُ طائراً.

وكان مِن أســـباب انتصار الحزب الشـــيوعي نجاحُه في نشر التَداوُل السَّهل للِّغة الصينية بين مُعْظَم سُـــكَّان الصين. ويُتْقِن أهل شنغهاي اليوم اللغةَ الصينية، غير أن الوافدين إليها من شَـــتَّى مناطق الصين يَدْرسون أوَّل مَرَّة لهجة شنغهاي المحلية،وقد بدأت الكتب والمعاجِم التي تساعد الناطقين باللغة الصينية الرسمية (الماندارين) تلتقـــط اللهجة، وأخَـــذَت طريقَها إلى مكتبات المدينـــة. وازدَهَرَت مـــدارس تعليم لهجة شـــنغهاي. كل ذلك لأن طبقة شـــنغهاي العليا من المديرين فـــي المدينة يتحدثـــون فيما بينهم بهذه اللهجة، وفي حضور المســـؤولين والعمال والمديريـــن الأجانب. وتوحي الإيماءات والنظرات للآخرين أن من يتحدَّثون بهذه اللهجـــة يُخفون أســـرارا، ويَعْجَبُ الأجانب من الأمر، فصـــارت مواد تعليم اللغة تُعرَض للأمريكيين والأُوروبيين الراغبين بشرائها.

إن الغَـــرَضَ مِن تَعَلُّم اللهجة المحليَّة هو أن يُحيـــطَ المرءُ بِكُلِّ جزءٍ مُمْكِنٍ من طاقة المدينة. ازدهرت شـــنغهاي في فترة الاســـتعمار [المعروفة بحَرب الأفيون]

بتَعاطي الناس الأفيونَ فأدمنوا عليه. فصارَت مُخدِّرات شنغهاي طاقَةً تَنْشُدُها جماهيرٌ كبيرةٌ من السكان الذين يَتَدَفَّقون على المدينة لأخذ نصيبهم منها. ويتَّقِدُ شبابُ شنغهاي تفاؤلاً بعيش رَغد يوم تضاعف الاقتصاد المحلي، ثم تضاعف أضعافاً مُضاعَفَة.

وإن وراء الرصيف ما تكاد تراه من المركب، فتجد المدينة تندفع وراء جميع الحدود شمالاً وجنوباً وغرباً. فقَد زَحَفَت رافعاتُ البناء بعدد كبير إلى شنغهاي من أنحاء العالم المُخْتَلِفَة في أواخر الثمانينات، وتمددت حُدودُها في عَنانَ السَّماء. فقد أُنْشِئَ أكثر من خمسة آلاف بناء جديد يرتفع كل بناءٍ خمسةَ عشر طابقاً سنة 2004م.

وإذا كان النهرُ خَيْرَ مكانٍ تَنْظُرُ مِنْهُ إلى المدينة، فليست المباني العالية أفضلَ مكانٍ تنظرُ منه إلى المدينة. فمن هذه الارتفاعات يرسل المرء بصره عبر غمامة مقيتة من سخام smog بني اللون تطفو على خط الأفق كالسحابة التي تُخَيِّم على حَمَّام عامل منجم فحم. وإن أوضح مشهد لشنغهاي تراه في قاعة عرض التخطيط المديني لشنغهاي. وإن من التحف الخيالية الغريبة عن حديقة رينمين (الشعبية) Renmin (People's) Park، رَدّ شنغهاي الاحتفالي على ساحة تيانانمين Tiananmen Square، والقاعةُ عُلْبَة بيضاء زجاجية، بحجم متجر كبير من متاجر المدينة، يعلوها أربع قباب عملاقة على شكل خيام سيرك مقلوبة، فيجعلها من أبهى مباني المدينة.

وقد يرى المرء في الداخل مدى ما تمحو شنغهاي من ماضيها المتواضع وبناء مستقبل رفيع. فيجد في الدور الثالث نموذجاً مصغراً للمدينة كُلّها، يشمل جميع مبانيها كما هي في مواضعها أو كما هو مخطط لها، وقد حُوِّلَت إلى برج صغير لا لون له. ويغطي المجسم مساحةً تُعادِلُ ملعب كرة السلة، ولا يزيد ارتفاع أي بناء عن عشرة سنتيمترات. فأيّ مدينة في العالم تأخذ قسماً من عقاراتها القيمة متخطية حديقتها الرئيسة وتخصصها لبناءٍ يُمَجِّد خطط قادتها المدينية

للمستقبل؟ فقد يكون في مدينة أخرى صُوَرٌ لمخططات المستقبل على جهاز كومبيوتر، ومجسم تحت الزجاج في دار البلدية أو متحف للعلوم، ولا يُفْرَدُ له بناءٌ كاملٌ. أما في شنغهاي، فإنَّك تجد الدعاية للمدنية تطالها حُمى الفخامة، وتنجح في ذلك. وعندما تصغر المدينة المزدهرة إلى حجم دقيق فإنها تبدو كائناً حياً يمتد على الأرض، ويتلاشى أفقها وراء مجال البصر.

ويسير سُكَّانُ المدينة على رصيف مُرْتَفِع يُحيط بالمجسَّم باحثين عن مَواقِعَ بيوتهم، أو المباني العالية التي حَلَّتْ محل بيوتهم. وقد يبدو المجسَّم مختلفاً كله عن هيئَتِه هذه قَبْلَ زَمَنٍ غير بَعيد. فقد عاش الناس في شنغهاي، وكَبُروا في جوار مدارس (كان مُعْظَمُها قُصوراً لِنُخْبَة الأجانب في المدينة)، ودكاكين صغيرة، وباعة مُتَجَوِّلين، وبيوتاً مُتَراصَّة من طبقتين أو ثلاث، تَضمُّ كلها تجمعات متآلفة من السكان. كان الأولاد يلعبون بالكُرَة، والأُمَّهات يَنْشُرْنَ غَسيلَهُن، والأَجْداد يَلْعَبون مهجنج mah-jongg أو يجلسون مع أقفاص عصافيرهم. أما اليوم فيذهب الفتيان والفتيات إلى مدارس في مدنٍ أُخْرى أو خارج البلاد، ويغادر المتخرجون المدينة للعمل ويعودون إلى بيوتهم بعد سنة أو سنتين ليجدوا مكان البيوت الصغيرة مجمعاً تبلغ مساحتُه مساحَةَ ساحة الأمم المتحدة في نيويورك. وهذه التجربة لاتؤدي إلى تشتت واضح فحسب، بل تُخَلِّف شعوراً بأن المدينة زائلة، مهما بُذِلَ من جُهْد في إعادة بنائها، وأن الذي سيبقى هو طموح شنغهاي فقط.

وتَشُدُّ الأنظارَ قاعةُ المعارض في حديقة رِنمينRenmin، حيث مسرح المدينة الكبير الذي صَمَّمَه فَرَنسي وافتُتِحَ سنة 1998م يُشْبِه مركز بومبيدوPompidou Center [في باريس] وقد أعيد بناؤه على شكل معبد صيني. وتجد عبر الشارع متحف شنغهاي الدائري، المبني من الجرانيت الإسباني الوَرْدي، وقد صُمِّم على شَكْل مركب برونزي صيني قديم، بقبابه وشكل قبضاته. وكان المتحف أول متحف صيني يُخَطَّط على النمط الأمريكي الحديث. وقد دُعي للتبرع الأغنياءُ، وبخاصةٍ أصحاب الملايين من مُهاجِري الصين الذين يقيمون وراء البحار، والذين يرغبون

بتقديم شيء لوطنهم الأم – عَلَّهم يَجْنونَ شَيْئاً بالمقابل. إنه المكان الذي يشعر فيه السياح الأجانب بالراحة القُصْوى في شنغهاي، فيربطون عظمة الصين الغابِرة بالحاضر. ويَتَجَوَّل فوج من الأجانب في الصالات، يُتعبُهُم فارق التوقيت، وتَباطؤ الزمن، وخمسة آلاف سنة من الاستعراض الإمبراطوري.

كيفَ غَزَت تايوانُ شنغهاي

لم ينمُ كلُّ طموح شنغهاي في داخلها، بل على خلاف ذلك. فبرغم أن القصد من المجسم في قاعة عرض تخطيط المدينة إعطاء انطباع أن المدينة تتحكم بمصيرها، غير أن المشهد من الخارج يعكس مدى ما أسهمت الطاقة والمال الأجنبيان، ومواهب الطبقة العالمية التي تتدفق على المدينة في إعادة بنائها. وإن إحدى مناطق شنغهاي التي كانت في يوم مضى خارج مجال البصر، أصبحت الآن فوق خط الأفق، وتضم أحدث مَعْقلٍ للأجانب في المدينة، موقع ولادة شنغهاي الجديدة.

وبدأ الأجانب يَتَدَفَّقون ثانيةً في التسعينيات، فأُعيد بناءُ منطقة كاملة من المدينة هي منطقة جوبي الجديدة Gubei من أجلهم. أما القادمون الجدُد فقد كان شعار الترحيب متَكرراً – بل يَبزُّ – وفرة تايبي Taipei وهونج كونج Hong Kong ومدناً آسيوية أخرى. حيث انبثقت تجمعات سكنية فاخرة ضخمة بحجم فنادق لاس فيجاس العملاقة وفخامتها. وبرغم أن تجمعات جوبي تبعد عدة كيلومترات عن الرصيف، غير أنها كانت – مع تجمعات ناطحات السحاب الجديدة الأخرى في شنغهاي –كبيرة جَعَلَت المباني القديمة تبدو صفاً من البيوت الريفية. ومثلما لَبَّت المستوطنات الدولية في شنغهاي القديمة الحاجات الشَّخْصِيَّة للأوروبيين واليابانيين، فإن جوبي الآن مدينة داخل شنغهاي تقدم صورة من آسيا المزدهرة التي تمتد إلى خارج الصين.

ولعل ما يدعو للتساؤل أن نجد كتب الأدلة السياحية لا تتطرق لذكر جوبي. فكتاب Lonely Planet Shanghai يصفها بتسع جمل؛ ولايذكرها كتاب Let's Go: China أبداً. إن ما يغفلونه اليوم قد يكون مكاناً غير عادي للسياح في المستقبل. ومثلما كانت شنغهاي القديمة، فإن جوبي مكان يُشْبِه امتيازاً أجنبياً، واستيراداً كاملاً لنمط حياة غريبة ابْتُدِعَت من أجل الأجانب ومن قِبَلِهِم.

كانت الموجة الأولى من القادمين الجُدُد تحمل عائدين من نوع خاص حقاً، إنهم «صينيو ما وراء البحار»، قَدِمَ مُعظمُهُم من تايوان، وهذا ما جعلهم إضافة غير عادية على المشهد المحلِّي. وإن حكومتهم في تايبي Taipei لاتحمل وضعاً رسمياً في الجمهورية الشعبية، وإنما أَحْضَروا معهم المال والخبرة؛ أمران لم تكن شنغهاي لتقاومهما. فأقامت شنغهاي الرسمية مكتباً خاصاً كقنصلية أمر واقع للتايوانيين، تقدم لهم ما تُقَدِّمُه حكومة لمواطنيها ذوي الوضع السياسي الأقل ضبابية. ويصعب تحديد عدد التايوانيين في شنغهاي، ولايستطيع إحْصاءَهم المكتب. ويتراوح الرقم الرسمي بين 250.000 و 500.000 فرد. غير أن الرسميين في شنغهاي يستطيعون تحديد عدد الأعمال التايوانية في المدينة. فهناك أكثر من خمسة آلاف منهم، يستثمرون أكثر من 10 بلايين دولار في استثمارات أجنبية تدخل المدينة. كانت الأعمال التايوانية ترحل إلى الصين بحماسة مُخَلِّفة في تايوان خوفاً شديداً من أن يتداعى اقتصادها مع هجرة المال والخبرة إلى بَرِّ الصين.

فكم يغير الاستثمار الأجنبي من المشهد للناظر إليه من نافذة قارب في النهر؟ لقد كان في المدينة، مع انسلاخ سنة 2003م، أربعة عشر ألفاً وأربعمئة شركة يملكها كلّها أجانب، إضافة إلى 13.000 من الأعمال التي تضمنها أموال أجنبية. فقد جذبت المدينة سنة 2004م أكثر من 12 بليون دولار في استثمارات أجنبية مباشرة، كان الجزء الأكبر منها لصناعات من أجل التصدير بخاصة للولايات المتحدة. وبكلام آخر، جذبت شنغهاي بمفردها مقدار الاستثمار ذاته

الذي جذبته إندونيسيا كلّها، البلد الذي يحتل المرتبة الرابعة في كثافة سكانه في العالم، والمكسيك، البلد الذي يفترض أن تحوله اتفاقية التجارة الحرة في أمريكا الشـمالية North American Free Trade Agreement إلى مغناطيس يجـذب رأس المال العالمي. والصينيون وراء البحار، هم أكثر المسـتثمرين حيوية، يقدمون أكثر من نصف المال الأجنبي الذي ينفق في تأسيس الأعمال. حيث بلغت حصتهم في أوائل تسعينيات القرن العشرين 70 بالمئة تقريباً.

وما زال سـهلاً أن تدرك الحُمى التي ألهبت مسـتثمري المدينة الأوائل بعد مُضِيّ سنوات على ازدهار شنغهاي الاقتصادي. فالاحتكاك المباشر بالصين يغير نظـرة المرء إلى الممكن والمتاح. والرحلة النهرية وحدها تثير الخيال، وتحرك كُلَّ المخططات والمشروعات لاقتناص الثروة من مشروعات الآخرين وجَرِّ جزءٍ يسير من تجارة هذا الحشد الكبير إليك. إنها أمور قد تبدو، ضمن أُطُر أخرى، مُنَفِّرَة، نجِدُها هنا متألِّقَة. فهناك حشد محدق واضح للعيان، والبصمة السياسية للحزب الشيوعي تحيط بكل شيء، وتُفَجِّر المدن وتنشرها نَشْراً عشوائياً؛ ورغبة مشتركة ودفينة في مقايضة الوقت بالمال، مهمـا كانت الكلفة الاجتماعية لذلك. فتبدو، هذه السـجايا على البعد، كلها في الصين كالشياطين. غير أنها قد تُسَيْطِر على تفكيـرك إذا اقتربت فتظهر لك غِنى. فكم تَخَلَّت بلـدان عن نظرتها إلى العالم عندما دخلت الصينُ المشهَد.

فَتَخَيَّـل أثر هذا الضغط النفسـي علـى التايوانيين، الذيـن كانت الصين دائمـاً نُصبَ أعينهم. وتناضل الآن الدولـة الزائفة على الجزيرة التي مالت إلى الديمقراطية في أمر الاسـتقلال وتـدرك تعامل العالم مع بر الصين. إذ تفرض فرصها عليها إعادة النظر في هُويَّتِها. وانظر في التعقيد السياسي لمزج درر تايوان الاقتصادية مع فرص الصين الفَسيحَة. فللتايوانيين كل الحق في أن يخشوا على روح تايوان الديمقراطية الجديدة المزعجة. وتُلِح الحكومة الشيوعية على أن يُنكِر التايوانيـون الذين اختاروا إقامة أعمال في بر الصين تطلعات القيادة التايوانية

إلى الاستقلال. ويأتي التوجيه أشبه بطلب أب يعرف ثروة أبنائه وارتباطاتهم الاجتماعية، وكذبة الهوية ضمن العائلة. وفي أحداث الصين المثيرة، نجد آباءً يطردون أبناءهم وبناتهم، غير أن قلوبهم ترقّ بما يكفي للتَّرحيب بمصالحة طال انتظارها، أو يعيشون المأساة عندما يدركون الأمر متأخرين. ويتساءل أهل البر الرئيس والتايوانيون، متى يغير الآخر آراءه؟. فالصين الشيوعية لن تتغير أبداً لأسباب تتعلق بتايوان. وربما تتغير تايوان وتقترب من الصين الشيوعية، غير أن الرهان على ذلك ضعيف جداً.

لقد سافر أكثر من مئة ألف تايواني إلى موطنهم للتصويت في انتخابات الجزيرة سنة 2004م، وكان كثيرون منهم يمارسون حقهم الانتخابي أول مرة في حياتهم. فَمَنَع الصينيون الاجتماعات السياسية للتايوانيين في الصين خشية فتح باب نقاش استقلال تايوان. غير أنهم أساؤوا التقدير. فالتايوانيون الذين يعملون في الصين لا يميلون إلى مؤيدي الاستقلال، فهم يعيشون حالة فريدة. والتايوانيون في شنغهاي مؤمنون يراهنون على الصين الأكبر، وليس على صناعات قليلة الأجر فقط، تستطيع أن تنهض وتنتقل في نزوة خاطفة إلى عمال محليين قليلي الأجور. ولعل الأهم هو أن شنغهاي وطن جديد للخليط التايواني العالمي الرائع. وعندما يأتون إلى الصين فإنهم لا يأتونها بدولارات استثمارية فحسب وإنما يحملون مزيجاً من التكنولوجية المتطورة، ويقع في ذلك المزيج ممارسات تجارية، وشبكة دولية مرتبطة بأفضل شركات العالم، ومصارف تايوانية وشركات تأمين وضمان، ومختبرات بحث عالية التكنولوجية.

وهكذا أيضا حال حشد شباب ذوي تطلعات دولية، الذين يتمتعون بأسلوب وطاقة إبداعية وأسلوب وسَطٍ بين شجاعة قوة البر الصيني الصناعية، وبين ما هو ضروري وغير ملموس من اعتدال التكنولوجية العالمية. وأما شباب الصين فيما وراء البحار – الذين وُلِدوا لآباء من الصين؛ وشَبُّوا في تايوان أو هونج كونج، أو ربما في كليفلاند، أو فانكوفر، أو ساوباولو، أو سَيْبريا الشرقية،

الذين تَعَلّموا في الولايات المتحدة، أو أُستراليا، أو بريطانية العظمى- فيعدون شنغهاي نسخة عن باريس عشرينيات القرن الماضي. وصحيح أن بيكاسو -Pi casso غير قادم، وإنما تتحول مناطق المخازن في شنغهاي إلى صالات عرض، بينما تأتي أستوديوهات السينما من هوليود أو هونج كونج وسواهما إلى هنا بمجموعة من رجال الأدب والتكنولوجية والشخصيات المرموقة الأنيقة الذين لم يسبق للصين أن عرفتهم من قبل.

لم تعد منطقة الجوبي Cubei للتايوانيين وحدهم فقط، بل صارت تُؤْوِي الكوريين، واليابانيين، وسواهم من صينيي وراء البحار، وبخاصة أولئك الذين يأتون من جنوب شرق آسيا وهونج كونج. وهناك مَعْقِل لأبناء شبه القارة الهندية يتَكَوَّن في إنديا تاون India Town. ويَفْخَر الجوبي الآن بمخازن عصرية ومطاعم ذوات خمس أدوار تتألف من غرف خاصة، ومحلات مُصَمِّمين، وصالونات راقية، حُدِّدَت أسعارُها كُلّها بعين مغمضة عن تكاليف المعيشة المحلية المنخفضة.

شنغهاي

إن الصُّحبةَ هي أحد أسباب الراحة التي يَلْتَمِسُها القادمون الجُدُد إلى شنغهاي، وقد تحول الجوبي إلى منطقة قادرة على استيعاب عدد متزايد بأتي إليها من مَحْظيّات «وزوجات ثانيات» سعيدات. ويستطيع المرء أن يلحظ نساءً صينيات خلال النهار، ارتَبَطْنَ برجالٍ، معظمهم صينيون، يعيشون في المدينة لمتابعة عمل ما، ويشترون للنساء ثياباً من الماركات الشهيرة، والأحذية ذات كعوب عالية، وحقائب يدوية فاخرة. فالجنس مازال من مُغريات شنغهاي. وتفاوت الثروة بين الوافدين والأغنياء المحليين من جهة، والعدد الجَمُّ من السكان الذين يبحثون عن سبيلٍ للصعود من جهة أخرى، كلها تُوَلِّدُ ما يُتيح جميع أنواع الاتصال. وما انخفاض مبيعات الجنسنج Ginseng المحلية سوى مؤشر بسيط على عدد الرجال الذين تحولوا إلى الفياجرا Viagra، التي لم تَعُد تَحْميها قوانين حماية براءة العلامات التجارية في الصين لشِدَّة الإقبال عليه.

وهنا، يستطيع كهل صيني عائد من وراء البحار أن يجد فتاة راغبة، ويستطيع ميكانيكيٌّ ألماني فَظّ مفتول الساعدين أن يجد فتيات لدنات رشيقات لا يَجِدُهُنَّ في وطنه، ويجد مهندسون غربيون باردون فتيات حارّات يُضْحِكن أصدقاءهنّ في الوطن. ويمر فيض من سيارات بورشه Porsche وSUV الرياضية المكشوفة أمام نوادي شنغهاي المزدحمة، تجري على أنغام موسيقى الراپ الصينية. ويجلس وراء مقود هذه السيارات سماسرة سِمانٌ قِصارُ القامة يَتَعَشّون كل ليلة مع زبائن ويسمرون بعد ذلك مع صُحْبَة، أو «قوارين» [جمع قارون] صغار اشترى لهم آباؤهم ذوي العلاقات والنفوذ أسلوب حياة صيني يشبه طراز حياة بِلْ اِرْ Bel Air. ترى يداً على المِقْوَدِ، والثانية على أحدث هاتف قيمته 800 دولار، يقودون سياراتهم ببطء ويتصلون بأصدقاء لهم في الداخل لتقدير المشهد هناك. وتقف أمام أبواب النوادي عصابات من رجال فظين يشتبكون كل ليلة في مشاجرات لإبعاد أبناء البروليتارية [الطبقة العاملة] القذرين اللجوجين الذين يُسْرِفون في الشراب المُسْكِر المَحَلّي، في مكان غير مرغوب بوجودهم فيه.

ويصيحون: «هذه هي الصين! ومن أنت الذي يطردني؟ إن أَجْوَدَ عاهرات شنغهاي هنا في الداخل وإني أريد أن أُجَرِّب عَيِّنَةً مِنْهُن!»

وتأتي الشرطة كل ليلة، وهي التي لا تكاد تُرى في المدينة، لتطرد الغاضب بعيداً. وإن مُقْتَحمي البوابة مُصيبون، فأجود عاهرات المدينة تجدهن في الداخل. ويحرص تلاميذ الأخوات هِلتُن Hilton Sisters على أن تكون ملابسهن ضيقة لها فتحات في مواضع حساسة، وأن تكون كعوب أحذيتهن بطول تنانيرهن، وقد صَفَّفن شعرَهُن وجَعَلن زينَتَهُن على طراز مراكب الأحلام الآسيوية. يوقفن القلوب ويكسبن نصيبهن من الاستثمار الأجنبي المباشر.

وثمَّة أولئك الذين يرغبون في البحث عن رفاق من جنسهم، في فورة الشباب، يَتَّصِفون بِنُعومَةٍ ودِفْءٍ. وترى مشهد الشذوذ الجنسي في شنغهاي نشيطاً، وبانكوك لا تبعد أكثر من حزمة زمنية واحدة. فالجنس يستقطب الأجانب إلى الصين، وإنما ليس بِقَدْر ما يَسْتَقْطِبه المال.

أَبْنِيَةٌ صاروخِيَّة

إن المفارقة التاريخية المذهلة عن المركب ليست في تصميمه على شكل التِنّين أو خدمتــه البطيئة؛ وإنما هي اللوحة التي تصف الجولة النهرية للزبائن. إذ تَعِدُ بأجمل الرحلات المائية في الصين، حيث تكشــف في كل دورة مشــاهداً طبيعيّة وافرة. ويَعْكِسُ استمرار المَشْهَد البهيج تَعَثُّر المشروع الحكومي، ويُظهِرُ أن اللوحة بعيدة عن واقع المدينة، مثلما هو حال جولة بِقارِبٍ حَوْلَ مانهاتان Manhattan التي مازالت تذكر أعجوبة قبر جرانت Grant's أو الذروة الرائعة لبناء وُولوُرْث Woolworth وتُهْمِلُ جمال خــط الأفق كُلّه ومنظر المدينة الكبيرة الذي يُغَطّي المَشْهَد. أما اليوم، وبعد انقضاء عشرين سنة على تدشين ذلك القارب، فلا مَفَرَّ من منظر مدينة شنغهاي وما يحيط بها من مصانع. وتطل المدينة وصناعتها من أعلى نهر هوانجبو على التنينات مع كل منعطف.

ولا يَتَجَلّــى هذا التباين في موضع آخر أكثر مــن بودُنج Pudong، وخط الأُفُق الزجاجي في شنغهاي حقاً. وترتفع الأرض التي كانت من قَبْلُ حقولاً، عَبر هوانجبو وبودُنج فغَدَت مُوازية لمركز مدينة ينمو نمواً لايُصَدَّق في القرن الحادي والعشرين، مُحَقِّقاً قراراً صدر قبل خمس عشرة سنة فصار مركزاً كبيراً بعد أن كان أرضاً سبخة منخفضة. ويُسَمّيها المسؤولون «صورة مصغرة لمعجزة الاقتصاد الصينــي»، وهي في حقيقتها مِثْل المعجزة. إذ تُؤوي منطقة بودُنج حوالي ســتة آلاف عمل أجنبي التمويل، وفيها ما يقارب ثلاثمئة من خمســمئة شــركة ثروات عالمية Global Fortune (وعلى ضفة شنغهاي القديمة للنهر توجد مئة شركة أخرى). وتَسْــتَغِلّ الشــركات التجارية الأجنبية وضع بودُنْج كمنطقة اقتصادية خاصة Special Economic Zone أو SEZ لِكَسب تخفيضات في الضريبة وحوافز أخرى، منها، علاقات صداقة مع القيادة الصينية، التي شجعت المشروع. إن هذا النمو – الذي يشمل أبراجاً مُسْتَدقّة وأضواء نيون، وعرض أفلام فيديو من أعالي ناطحات الســحاب، ومطاعم دوارة تَعلو كمركبــات فضاء أُخِذَت من

صفحات مجلة أمِيْزِنج ستوريز (قصص مذهلة) Amazing Stories مشاريع تشبه قصص إتّش جي وِلْز H.G. Wells حيث يُخرج المستقبلُ التكنولوجيُّ المتطور الصينيينَ من وقائع الحاضر القاتمة. وهذا ما يجعل بودُنْج خير دعاية للأمل.

وقد تكون بودُنج من أكثر الأعمال التافهة التي عرفها العالم. فمن أين أتى كل هذا المال لبناء ضاحية مدينة ستضاهي باريس في حجمها في زمن غير بعيد؟ لقد استثمرت حكومة الصين أكثر من 12 بليون دولار في إنشاء بنية تحتية لكي تَتَهَيّأ الأرض لمزيد من البناء. وإذا استثنينا تكاليف البنية التحتية البلدية، فإن طفرة البناء في بودُنج، مَثَلُها في ذلك مَثَلُ كثير من تطورات الصين الأخيرة، قد ضَمِنَتها ثروة من المال العام أُنْفِقَ وخُصِّصَ دون اعتبار لجدوى الاستثمار الاقتصادية. ويبقى التفاؤل شديداً، فثمة جهاز اجتماعي كامل قائم ليؤكد بقاء التفاؤل عالياً.

فهل ينبغي أن يُراهَن ضدَّ بودُنج،؟ ربما لا. فهذه شنغهاي، حيث تنطلق المَباني من الأرض مثل الصواريخ، وحيث الرجال يلتهمون فياجرا مُزَيَّفَة [مُقَرْصَنَة]، وحيث يندفع روَّاد المدينة وراء مشاريع تَشعُّ تَفَوّقاً كلما ذكرت. فهم ينظرون إلى المباني والأشغال العامة قد ضُخِّمت لتكون الأكبر، والأعلى، والأطول، والأسرع، وكل ما له صفة الأفضل.

ويعد برج تلفزيون لؤلؤة الشرق Orient Pearl Television Tower المَعْلَم الأَبْرَز في بودُنج، فهو أعلى برج تلفزيون في آسية كُلِّها، وثالث أعلى برج في العالم. فيشمخ في عُلُوِّه حاملاً ثلاث كرات معدنية متناقصة في أحجامها، صُمِّمَت لتبدو كالجواهر. فأكبرها وأدناها صالة رقص وغناء كَرَوُوك karaoke، ويعلوها مطعم دوَّار، وأما الكرة الأصغر فهي منصة للمراقبة. ولما كان البرج قد بني سنة 1994م فإنه لم يعد يلائم مقام شنغهاي المتطوِّر، لولا أن شعوراً عاطفياً مطلوب ليفيض عند بقاء مَبَانٍ ضخمة في مواقعها على مَرِّ السنين. وربما كان لها بريق بعد الحداثة، مطلقة العنان لخيال معماريي مباني شنغهاي الجديدة

في كَسْـــر أسلوب تقليدي دولي للاستمتاع بطراز مبانيهم. ويُحِبُّ أدلاء السياحة في المدينة أن يشـــيروا عند رؤية البرج على نســـق ما جسرين قريبين فيصورونه تتّينَـــيْن يلعبان باللآلئ. وهناك أمام البرج مبنى آخر على نســـق مُمتع. إنه مركز المؤتمرات الدولي، وهو بناء على شـــكل مستطيل مُنحنٍ يضم قاعتين زجاجيتين كبيرتين أخذتا شـــكل العالم في نهايتيه. وبينما يُتَمِّمُ قارَب الرحلة شـــطرَ أَعلى النهر، يَتَدافَعُ الناسُ إلى الحاجز [السُّور] ليلتقطوا صورة لبرج التلفزيون الذي يعلو مركز المؤتمر، وتعلو مِسَـــلَّة البرج بكبرياء بين الكرتين الزجاجيتين. تُرى هل أَغْفَلَ المُصَمِّمون هذا الاحْتِمال؟ أم تُراهُ أُثارَهُم؟

وقد أدَّت توهو بيكتشرزToho Pictures ســـنة 2004م أعلى مجاملاتها لبودُنْج، إذ جعلت بودُنج موقع مشهد قتال مناخي في فيلم جدْزيلا :Godzilla Final Wars. فيســـحق البرمائي الكبير مدناً رئيســـة كثيـــرة في العالم في ما قيل إنه فيلمه الوداعي، غير أن مشهد القتال الناري ضد التنين في شنغهاي كان أعظم ما في الفيلم. فيعطي برج تلفزيون لؤلؤة الشـــرق وضعاً مُمَيّزاً أعطاه من قَبْل فيلم كنج كنج King Kong لمبنى إمبايرسْتِيْت Empireate State.

غيـــر أن هذا ليس كل شـــيء. فثمَّة برج آخر مـــن الأبراج التي يمر في ظلها مركـــب الرحلة هو مبنـــى جِنْماو الفضي اللامع Jinmao، الـــذي يرتفع ثمانية وثمانين دوراً في بودُنْج على ضِفَّة النهر الشرقية. وتضم ناطحة السحاب، وهي أعلى بنـــاء في الصين، فندق جراند هايـــات Grand Hayat، وهو أعلى نُزُلٍ فـــي العالم. ويشـــبه مبنى جِنْماو القاربَ، فهو مطلي مـــن خارجه برموز صينية، واســـتبدلت رؤوس التنين على ســـطحه الخارجي بإطار برونزي عُدواني المظهر يمثل عصر الـــدول المتحاربة Warring States Epoch أو دمية جســـم آلي صيني. إنه نوع من ناطحات سحاب قوية غنية كانت تبنى في نيويورك وشيكاغو تُعَبِّر عن طموح المدينتين الذهبيتين، تُنْبي عن رغبة شنغهاي في أن تحتل مكانها بين أولى مدن العالم، وإنما بطريقة صينية خاصة لثقافة مالٍ عالمية. لقد صَمَّم

الرموز معماريون أمريكيون في شركة شيكاغو العملاقة سكِدْمور، أُوِينْز أَند مِرِل Owens and Merrill، Skidmore، وهي التي صَمَّمَت برج سِيْرْز Sears Tower [في شيكاغو]. وتبدأ أجور الغرف في فندق جراند هايات في شنغهاي من 240 دولاراً، أي ربع متوسط الدخل السنوي للفرد الصيني الذي اعتاد أن يدفع عشرة دولارات في الليلة في فنادق البلاد الكثيرة التي تقدم خدماتها للشريحة الأكبر من السكان الأقل دخلاً.

وليس هذا كل شيء. فالمشروعات المطروحة الآن التي ستنهي العقد الحالي في منطقة شنغهاي وتتضمن أطول أبنية في العالم، وأكبر حوض للسفن، وأعلى عجلة حديدية على الرصيف، يبلغ طولها 197 متراً. أضف إلى ذلك مئات أميال من طرقات رئيسة داخل المدينة وحولها، وتوسعاً كبيراً في نظام قطارات الأنفاق الحديث ينطلق إلى مناطق من شنغهاي يُعادُ بِناؤها.

وثمَّة مشروع لِمَدِّ أسرع قطار في العالم، إنه قطار مغناطيسي سابح يجري الآن على مسار واحد قصير بين ضفتي النهر الشرقية والغربية لينقل الناس إلى المطار الجديد. فقطار ماجلف Maglev الذي بلغت تكاليفه 1.2 بليون دولار، يسير بسرعة تقارب خمسمئة كيلومتر في الساعة بين شنغهاي وبيجنج. وقد بنى القطارَ التجريبيَّ هذا شركتان صناعيتان ألمانيتان عملاقتان هما سيمِنْس Siemens وتُيسِن كروب Thyssein Krupp، مُحاوِلَتَيْن بيعَ تكنولوجيَّتَيْهما للصين، غير أنهما قد لا تُوَفَّقان في الحصول على مشروع أكبر. فللصين قطاراتها عالية السرعة التي تُصَنِّعُها، بثقة العصر وبالتدفق السهل للتكنولوجية الأجنبية إليها، تلك التي اشتراها الآخرون ودفعوا ثمنها. وقد كانت اليابان قبل أربعين سنة مُنتِجاً مُقَلِّداً منخفض الكلفة، فساهم قطارها السريع، شينكانسِن Shinkansen في وضع البلاد في موقع ريادة التكنولوجية. وقام القطار بأول رحلة له سنة الألعاب الأولمبية في طوكيو، فكان نجم صور براقة طُبِعَت وبُثَّت عبر العالم، فأظهرت البلاد في أَوْجِها، وحَوَّلَت الأولمبياد إلى مَشْهَد أخّاذ. وسيبدأ الخط السريع

الذي يربط شـــنغهاي وبيجنـج رحلاته سنة 2008م، مع احتمال تأخير في موعد إنجازه، وهي ســـنة أول أولمبياد صيفي في الصـــين. وعندما يوازن قادة الصين بين جنون إنفاق 1.2 بليون دولار على مســـار تجريبي لقطار ســـريع طوله أربعة وثلاثون كيلومتراً، وبين إنفاق 16 بليون دولار على نظام نقل داخل المدينة، فإنهم يرفضون منطقاً يقول إن المال خير ما ينفق على برامج تخدم مئات ملايين البَشَر الذين لن تكون تذكرة ســـفرٍ في قطارٍ شـــديد الســـرعة رفاهيةً متاحة لهم. إن الاستثمار في مكانة عالية للأمَّة يفترض أن يَجني الجميعُ أُكُلَه. وإن إقناع العالم بأن الصين تستطيع التفوق على اليابان يعطي ثمرات نفسية لا يشتريها مال.

وهذا ليس كل شـــيء أيضاً! فآباء المدينة يخططون لبناء ثلاثة جســـور كبيرة وأربعة أنفاق للمواصلات، سيكون أحدها أَطْوَلَ نَفَق في العالم. وإن مشروع الجسر الوحيد، أطول جســـور العالم يقع خارج شـــنغهاي، غير أنـــه يدخل ضمن مصالح المدينة. إنه الطريق الرئيس الذي خُطِّطَ لبنائه عالياً كلفته 1.4 بليون دولار، يصل الطريـــق الممتد في جنوب المدينة إلـــى خليج هانجزو Hangzhoo Bay فيقطع الجسر خمسة وثلاثين كيلومتراً، ليصل النهاية الجنوبية بمدينة سِكسي Sixi بوابة مقاطعة زيجيانـج Zhejiang، إلى جنوب شنغهاي المحشوة بالصناعة.

وتُوَثَّق هذه الضخامة بحرص كل يوم على الصفحات الأولى لصحيفة شنغهاي دِيْلـــيShanghai Daily التي تصدرها الصحافة الحكومية باللغة الإنجليزية. إنها صحيفة سريعة بهيجة مُطَعَّمَة بالأخبار المحلية، وبموجز لمنجزات الحكومة، وزيـــارات الدولة، وأخبار وكالات الأنباء عن أحداث العالم – ربما في الدانمَرك أو تونجـــو- والتـــي لا يكون لها أهمية محلية في أغلب الأحوال. وتمتلئ ســـلال المهملات في قارب النُزهة بنسخ من الصحيفة حتى قبل أن يُبْحِرَ القارب.

غير أن الصحيفة تستحق القراءة مرَّة وثانية، فأخبارها – مثل معظم أخبار الصحافة الحكومية في الصين – تُعدّ مقياساً ومحرضاً لطموح الصين. وتسجل صحافةُ الصين كلَّ جهدٍ يُبْذَل، سواء أكان عاماً أم خاصاً، لدفع الصين إلى قمة

أي ســباق تعلن عن دخوله. وتحمل أخبار الصين، طبعاً، رسالة «تصعيد السباق» التي تشجع الآســيويين، والصينيين بخاصة، على بذل جهود أفضل في مجالات شَــتَّى. وقد يصف موضوع الصحيفة الرئيس في أحد الأيام فوز صانعي أجهزة الهاتف الجوالة الصينيين في الســباق ضد الأجانب، مصــوراً الانتصار فخراً. غير أن الحساب مشدود، والبحوث التي يستند عليها مُسْتَهْدَفَة. فأجهزة الهاتف الجوال الصينية ليســت رائدة الســوق، وإنما يقول مســتعملوها الصينيون إنهم يأملون أن تستطيع الأجهزة المحلية أن تسود السوق في مُقْبِل الأيام. ويكون الأمل أن تساهم عناوين الصحيفة في تحقيق تلك الأمنية.

وتملأ الإنجازات الشخصية الكبرى الصفحة الرئيسة أيضاً. فثمَّة موضوعات رئيســة تتحدث عن الفائزين الشــباب في مســابقات للناطقين بالإنجليزية في الوطن كلِّه. فتأمَّل لو أَنَّ صحيفةً أمريكية حاولت أن تزيد مبيعاتها بنشر موضوع عن فتــى أمريكي مجتهد تَفَوَّق على أقرانه في مســابقة للمحادثة بالفرنســية فألقى خطاباً عــن فضائل الأخوة الدولية. فالصحافة الصينية تنشــر بانتظام موضوعــات مثل هذه. ففــي بلد يُعَوِّل كثيراً على منجــزات الجيل القادم، حيث تضطر الأُسَرُ إلى الرِّهان على منجزات طفل واحد هو الذي تسمح لها الحكومة بإنجابه، لا شك أن يجد الأبوان والأجداد انتصارات أطفال الآخرين المبدعين أمراً مُمتِعاً، ونشــوة نصر في بلد يعطي علامات النجاح الجيدة والمسارات الأكاديمية الصحيحة ما يُشْــبِه النشوة الجنســية. فالأطفال الألمعيون يحملون مفتاح تفوق الصين، وربما اســتطاعوا يوماً ما أن يبنوا أعظم مــا في العالم إن هم اجتهدوا الاجتهاد الصحيح. وليس ثَمَّة شك في أنهم سيساهمون في بناء اقتصاد سيكون أكبر اقتصاد في العالم، إن سارت الأمور كما يشتهي الصينيون ويتوقعون، ويصبح أقوى قوة جيوبولتيكية تتمتع بأعظم نفوذ في آسيا وربما في العالم.

وعندمــا تبلغ رحلة القارب نهايتها ويصدم قوس التنين بِرِفْق برصيف الميناء،

لا يملك المرء إلا أن يرى مصير الصين في مدنها في تبعية تايوان، وعودة صينيي مـــا وراء البحار إلى الوطن الأم. وتعد المشـــروعات الكبرى مقدمة عامة للهيمنة، وجـــزءاً من هيـــكل وطني يُبْنى. وربمـــا لا تكون مناظر الطبيعة مـــن القارب في شنغهاي جميلة في عَيْنَيْ من ينشد الراحة بعيداً عن أزيز محرك الصناعة المدنية الذي هو شـــنغهاي، لكنها تملك جمالاً خاصاً يـــراه الذين يعدون القوة الصناعية والفـــن المعماري طريقاً إلى عالم اســـتعادت الصين مكانهـــا الطبيعي فيه – في المركز، حيث هي موضع احترام، وربما تكون مصدر خوف أيضاً.

obeikandl.com